درس من الحديث
في الطريق الى هويتنا

إعداد
د. أحمد باسل نور الدين الرفاعي
أستاذ القانون الدولي العام المشارك
قسم القانون العام كلية الحقوق
جامعة المملكة / مملكة البحرين

من ٦٧٥ إلى ٧١٤

A lesson From The Hadith On The Way To Our Identity

Dr.. Ahmed Basil Nour El-Din Al-Rifai

Associate Professor of Public International Law-Department of Public Law

collage of rights-Kingdom University Kingdom of Bahrain

درس من الحديث في الطريق الى هويتنا

أحمد باسل نور الدين الرفاعي
قسم القانون الدولي العام ، كلية الحقوق ، جامعة المملكة ، مملكة البحرين
البريد الاكتروني : a.rifai@ku.edu.bh

الملخص :
بدا الحديث الشريف في قوته الدلالية مشيراً إلى انموذج للإنسان مختلف عن الأنموذج الذي بناه الإسلام. ومن هذه الإشارة الدلالية انطلق البحث الذي أثبت أن كلمة (أبى)الواردة في الحديث هي من جوامع الكَلم لأنها تكشّفت عن معانٍ شتى كأنها حلقات في سلسلة مترابطة تقود إلى المشكلة الكبرى التي يعاني منها العالم الإسلامي المعاصر. في تتبع الدلالات السيكولوجية التي تكمن في هذه الكلمة الجامعة ظهرت قضيتان كبريان يتوقف عليهما مصير العالم الإسلامي: قضية الفطرة وقضية الهوية الثقافية. وهما قضيتان متداخلتان إذِ الفطرة هي قلب الهوية الثقافية لدار الإسلام؛ فالانحراف عنها يهدّد اذن هذه الهوية بالانهيار. وتجلت عندئذ حقيقة تتعلق بعودة الشريعة الى الحكم؛ فالشريعة هي منهاج الفطرة كما نصّ عليه القرآن)سورة الروم، الآية٣٠ (فعودتها مشروطة بعودة الفطرة أو بعودة الإنسان المسلم إلى الفطرة التي انحرف عنها منذ أمد بعيد. وهـــهنا تجلى خطر المؤسسات الكبرى في المجتمع المسلم، البيت والمدرسة والجامعة ،هذه المؤسسات التي هي مراكز الحياة والحضارة والتي تخلت منذ أمد بعيد عن رسالتها ووظائفها.
البحث قادنا إذن إلى ما نستطيع تسميته فراغ الهوية؛ وهو فراغ راح يملؤه حضور هوية ثقافية مضادة هي هوية الغرب الحديث الذي اخترق لها دار الإسلام اختراقاً كاسحاً مستهدفاً القضاء المبرم على هويته الثقافية. أي ان التحليلات انتهت بنا إلى الصراع الوجودي العميق والحاد بين هاتين الهويتين الثقافيتين. وكما قادنا هذا الطريق إلى حقيقة الصراع فقد حاول أن يتبين آفاق الخروج منه والوصول بسفينة الحياة إلى بر الأمان .

الكلمات المفتاحية : هوية ؛ ثقافة ؛ الإسلام ؛ الحديث ؛ الغرب .

A lesson From The Hadith On The Way To Our Identity

Ahmed Basil Nour Al-Din Al-Rifai
Department of Public International Law, College of Law, Kingdom University, Kingdom of Bahrain
Email: a.rifai@ku.edu.bh

Abstract:
The honorable speech of our Prophet Mohammad attracted our attention to the type of human being who is quite different from the type who Islam built. From this point, my research started. It proved that the word :ابى (refused) which appeared in the Hadith, is one from the prophetic speeches, which contain many senses that lead us to the biggest problem from which the contemporary Islamic world suffers. Following the Psychological signification of this word, two big problems appeared which the Islamic world destiny depends on, common sense and cultural identity .
Common sense is the heart of the cultural identity of (Dar Al-Islam: Islamic world), the deviation from the common sense threatens this identity. Here appeared the truth of the return of the Islamic law. The Islamic law is the curriculum of the common sense as it is announced in the Quran Surah Al-Rum, verse 30
It's return depends on the return of the common sense to the Islamic Human Being (Muslim). Here appeared the danger of the big institutions in the Islamic societies, the home, the school, and the university. These institutions which are the centers of life and civilization abandoned their main motives and duties .
This research led us to the absence of Islamic identity which was filled by the modern western identity, whose main motive was destruction of the Islamic identity. Our analysis led us to the deep conflict between these two cultural identities .
As this way led us to the nature of this conflict, it led us at the same time to the way of reaching the aim safely .
Keywords: Identity; Culture ; Islam; The Talk ; The West .

مقدّمة:

درس من الحديث
في الطريق الى هويتنا

"من اطاعني دخل الجنة ومن عصاني قد أبى" حديث شريف المقدمة هذه محاوله لاستخراج الدلالة التي يحملها حديث من أحاديث من أوتي جوامع الكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي على وجه التحديد دلالة انطوى عليها لفظ من ألفاظ الحديث. وقد نقلتنا هذه الدلالة السيكولوجية الى ما يكتنف الأمة من مظاهر الحياة المعاصرة القائمة على انحراف خطير عن الفطرة، وهو انحراف أحدث أثره العميق في جوانب الحضا رة المعاصرة التي نهضت على أساس مختلف عن الأساس الذي قامت عليه حضا رة الاسلام.

واذا كان البحث قد التزم الحدود التي يقتضيها موضوعه وامتنع عن تجاوزها فانه مع ذلك فتح الباب لولوج افاق عديدة ينبغي علينا ولوجها بعد أن تركناها زمنا طويلا لغيرنا يرتادها ويقول فيها كلمته ويبني فيها ما شاءت قرائحه وقابلياته الفكرية والمادية. وبعد ان كنا نحن الرواد وتركنا للبشرية ثروات عقلية وروحية هائلة في تلك الريادة رضينا، ونحن في ركودنا العقلي والروحي، ان نلتقط من ايدي الغرب ما يروق له أن يلقيه علينا.

قل لي من هو الانسان، ما طبيعته، أعرف عندئذ السرّ الاعمق في بناء الدولة والقانون والعلاقات البشرية والعلاقات الدولية والاقتصاد والعائلة والاخلاق والعمران. لقد اجاب الاسلام على هذا السؤال المركزي فرسم بجوابه الواضح هذا البناء العام وعاشت البشرية قرونا في ظل هذا البناء. ثم انسحب الاسلام) وبالأحرى انسحب المسلمون(من ميدان الحياة فأجاب الغرب جواباً فيه وضوح لمن يسبر غوره وفيه غموض و موارية للكثيرين من أبناء الغرب والشرق على السواء. وما تزال البشرية تعيش في ظل البناء الذي شاده الغرب. ولا نريد المقارنة إذ حكم التاريخ واضح. ومصير البشرية تحدده قوانين التاريخ التي هي قوانين الله عز وجل.

قادنا الحديث الشريف موضوع البحث الى مشكلة الهوية الثقافية لدار الإسلام. ورغم أ نها مشكلتنا الكبرى فإننا لم نعالجها في عمقها السيكولوجي الذي هو قلبها فتفاقمت وذهبت جهوده –النهضة– أدراج الرياح.

ولاشك في ان غياب الهوية قد فتح معاقلنا كلها لأعداء الاسلام والعالم الاسلامي. ولم يكن سقوط الخلافة في العام ١٩٢٤ الا دليلا على هذا الغياب الذي تفاقم عبر القرون منذ سقوط الخلافة الراشدة اي سقوط سلطان الامة. كان حرياً بهذا السقوط ان يستتبع اهتزا زًا في شخصية المسلم يمس هويته التي تجمع الدنيا والاخرة في مزاج يبني الحياة بمنهج فريد، منهج الشريعة الذي هو منهج الفطرة. الى هذه الهوية تشير كلمة (أبى) الواردة في الحديث موضوع البحث. ومن ههنا تبرز أهمية هذا البحث الوجيز الذي يحاول استقصاء دلالاتها القريبة والبعيدة. فهذا الجهد المتواضع يخدم اذن غاية جليلة هي إحياء شخصية المسلم واسترداد الهوية الثقافية لدار الإسلام .

اتبعنا في هذا البحث المنهجين الوصفي والتحليلي . فاتبعنا الاول لوصف الواقع الذي انحدرت اليه الامة ، واقع الانفصال عن الهوية . واتبعنا المنهج الثاني لتسليط الضوء على الاسباب التي افضت الى انفصالها عن هويتها ، ولبيان السبل المفضية الى استعادة الهوية .

وعالجنا الموضوع في مبحثين وستة مطالب موزعة بينهما . عنوان المبحث الاول هو (عالم النفس في ضوء الحديث) ؛ وقد قسمنا هذا المبحث الى مطلبين عنوان الا ل منهما (المغزى السيكولوجي للحديث) وعنوان المطلب الثاني (تأصيل المغزى السيكولوجي) . اما المبحث الثاني فعنوانه (طبيعة الشريعة) ، وقد قسمناه الى اربعة مطالب : المطلب الاول (حقيقة الايمان) ، المطلب الثاني (بين الفطرة والنفس الحسية) ، المطلب الثالث (الهوية الثقافية لدار الاسلام) ، المطلب الرابع (الصراع المصيري بين الغرب وبين دار الاسلام) .

المبحث الاول

عالم النفس في ضوء الحديث

المطلب الاو ل المغزى السيكولوجي للحديث

كان ممكنا أن يكون الحديث (من اطاعني دخل الجنة ومن عصاني لم يدخلها). لكن الحديث تجاوز هذا المعنى البديهي الى معنى أعمق هو رفض نعيم الجنة او عدم ارادة دخولها. الحديث اشار بهذا الى حقيقة عبر عنها القران بقوله (إِنَّ الذِينَ لاَ يــرجُونَ لقَآءنَا وَرضُواْ بِالْحياةِ الدُّنــيا وَاطمَأَنُّواْ بها وَالذِينَ هُمْ عَنْ آياتنا غافِلونَ* أولَــئكَ مَأْوَاهُمُ النارُ بما كَانواْ يكْسِبونَ).[١]

ومقابل هذه الحقيقة النفسية توجد حقيقة مناقضة لها هي إ رادة دخول الجنة. وقد عبر القران عن هذه الحقيقة بقوله: (وَمَنْ أرادَ الْآخِرةَ وَسَعَىٰ لَها سَعْيــهَا وهُوَ مُؤْمِنٌ فأولَئكَ كَانَ سَعْيــهُم مَّشْكُورا).[٢] والى هذه الحقيقة اشار الحديث)قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل : كيف تقول في الصلاة؟ قال: أتشهد واقول: اللهم اني اسألك الجنة وأعوذ بك من النار، أما اني لا أ حسن دندنتك ولا دندنة معاذ. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: حولها ندندن).[٣] وبديهي ان هذه الارادة جزء من الايمان باليوم الاخر. فهاتان الحقيقتان المتناقضتان تتنازعان النفس، وبانتصار احداهما تكون الطاعة او المعصية .

القران والحديث لا يكتفيان اذن بالأمر بالطاعة والنهي عن المعصية ، بل يلفتان النظر الى ما للأمر والنهي من امتداد عميق في النفس البشرية. وسنرى أن التنبه لهذا الامتداد السيكولوجي ضروري لفهم الشريعة ولإقامة منهاجها والعمل الحقيقي بها. ويبقى فهم الشريعة ناقصا دون الاحا طة بهذا الامتداد. وسنرى تباعا أن هذا الفهم المتكامل للشريعة ضروري لفهم

١سورة يونس، الآيتان ٧ و٨ .

٢سورة الإسراء، الآية ١٩ .

٣ابن حجر العسقلاني، الفتوحات الربانية ،٣/١٧. الألباني. صحيح ابي داوود ،٧٩٢ .

الهوية الثقافية لدار الاسلام ولمعرفة طريقة استعادتها، وهي التي يتوقف عليها عودة دار الاسلام الى الحياة .

المطلب الثاني تأصيل المغزى السيكولوجي

اذا كان تعليم الاسلام ينزل الى هذا العمق السيكولوجي الذي يكتمل به منهاج الشريعة فان هذا التعليم يؤصله تأصيلا صريحا لا غموض فيه. يقول القران (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣)).[١]

فالطبيعة البشرية او الفطرة قائمة هكذا على ثنائية الروح والجسد، وواضح ان الروح هنا جوهر مستقل. وواضح بالتالي ان امتزاج الروح والجسد يفضي إلى أن تجري حيا ة الجسد في مسالك الروح وان تكون معايير السلوك الجسدي نفسه معايير اخلاقية. هل هذه مثالية؟ نعم، على انها مثالية واقعية. ان منهاج الشريعة هو نظام الفطرة، وقد عبر القران عن هذه المثالية الواقعية بقوله (فأَقِمْ وجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فطرتَ اللَّهِ التِي فطرَ الناسَ عَليــهَا لَا تــبْدِيلَ لِخلْقِ اللَّهِ ذَلكَ الدِّينُ القَيمُ ولَكِنَّ أَكْثــرَ الناسِ لَا يــعْلمُونَ).[٢] و رغم واقعية الاسلام وانه يلبي حاجات الطبيعة البشرية فان الانحراف عنه يمثل حالة يمكن ان تقع فيها الطبيعة البشرية أي يمثل انحرافاً سيكولوجياً ينقطع فيه امتزاج الروح والجسد ويحل محله انفصالهما. ولا ريب في ان لهذا الانحراف السيكولوجي أي لهذا الفصام العميق أسبابه. اننا امام مرض نفسي يصو ره القران بقوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَروا يــنادَوْنَ لمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تدْعَوْنَ إِلَى الِايمانِ فــتكْفُرُو نَ).[٣] واضح ان القران يصور الكفر على انه انشطار بين عنصري الذات البشرية، الروح والجسد. واذا كان امتزاجهما هو الاصل

١سورة ص، الآيات ٧١، ٧٢ ، ٧٣.

٢سورة الروم، الآية ٣٠ .

٣سورة غافر ، الآية ١٠ .

والواقع الاول للإنسان فان انفصالهما واقع عارض له اسبابه التي اذا توفرت حدث وأمكن له الانتشار. ونستطيع في ضوء هذا الواقع العارض أن نفهم ظواهر الحياة المعاصرة .

في هذه البيئة النفسية المرشحة للسمو وللهبوط، المرشحة لامتزاج الروح والجسد أو لانفصالهما تظهر احدى الحالتين اللتين اشرنا اليهما في مطلع دراستنا للحديث الشريف. فلفظ (أبى)يشير إذن إلى انحراف عن الفطرة يحدث بانفصال بين عنصريها يصرف النفس عن ارادة دخول الجنة. فمن نَهجَ الشريعة أي منهج الفطرة دخل الجنة، وأما من خالف هذا النهج فقد (أبى) اي لم يُرِد دخول الجنة.

المبحث الثاني طبيعة الشريعة

المطلب الاول حقيقة الايمان

الحديث الشريف يدع ونا إذن الى التأمل في هذه البيئة النفسية التي تظهر فيها هاتان الحالتان او إحداهما بحسب توفر اسبابها. إن التأمل فيها يكشف لنا ماهية الايمان والطاعة وماهية الكفر والمعصية. فالإيمان في حقيقته ينطوي على انسجام الفطرة بعنصريها اي على هيمنة الروح على الجسد، وهي هيمنة تحرر الجسد من سطوة نزعاته وتسلط غرائزه عليه. وتضمن ان تكون تلبية هذه النزعات والغرائز تلبية حقيقية لا تميل الى الشطط او التكلف بالزيادة او النقصان. واذا كانت هذه التلبية الحقيقية لمطالب الجسد مباحة فقد اشار اليها القران بصيغه الامر في قوله (يا بنِي آدَمَ خُذُوا زينـــتكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلوا وَاشْربوا ولَا تسْرفوا إنهُ لَا يُحِبُّ المُسْرفينَ).[١] وزكّاها بقوله (قلْ مَنْ حَرمَ زينةَ اللَّهِ التِي أخْرجَ لعبادِهِ وَالطيباتِ مِنَ الرِّزقِ قلْ هِيَ للذِينَ آمَنوا في الْحياةِ الدُّنـــيا خَالِصَةً يـــوْمَ القِيامَةِ كَذَّلكَ نـــفَصِّلُ الْآيَاتِ لقَوْم يـــعلَمُونَ).[٢] بل القرأن يشعرنا هنا بأن النعيم الأخروي امتداد للنعيم الارضي، على ما بينهما من اختلاف لا يقبل المقارنة إذ في الجنة) مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر(كما جاء في الحديث.[٣] و كما صرح القران بهذه الدنيوية صرح بها الحديث)انك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الّا أجرت عليها حتى ما تجعل في فم ام رأتك).[٤] (وفي بضع أ حدكم صدقة.)[٥]فهي بديهياً عبادة ، وهي موسومة بهيمنة الروح على الجسد، وهي تتحقق في حدودها

١سورة الأعراف، الآية ٣١ .

٢سورة الأعراف ، الآية ٣٢ .

٣صحيح البخار ي ٤٧٩٧. مسلم ٢٨٢٤.

٤رواه سعد بن ابي وقاص)رض(صحيح البخاري. كتاب الايمان – باب (انما الاعمال بالنيات). الصفحة ١٣. رقم الحديث ٥٦ .

٥صحيح مسلم ١٠٠٥. وانظر ابن القيم، اعلام الموقعين ،١/١٨١ .

الطبيعية . لو تخيلنا اذن حضور الشريعة مع غياب الفطرة ، هذه الطبيعة الثنائية الموسومة بانسجام عنصريها، فلن نكون امام حضور حقيقي للشريعة، وسيكون حضورها الناقص تشويها لها وربما ستترتب عليه نتائج كارثية تتحقق باسم الشريعة وهي بريئة منها. وهل سيكون حضو رها الظ اهر تحقيقاً للإيمان؟ ان حديث الرسول صلى الله عليه وسلم يحدد ماهية الايمان بقوله (الايمان ما وقر في القلب وصدقه العمل) وبقوله (لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به). الشريعة تتناول الانسان بكلية وجوده، ظاهره وباطنه، وتقيم حكمها على توافقهما. وبهذا التوافق قام حكم الشريعة قياماً حقيقياً لدى الجيل الاول الذي أنشاه الاسلام على يد الرسول صلى الله عليه وسلم. لقد كان التنزيل التدريجي للقران على مدى ثلاث ة وعشرين عاما تحري رً ا تدريجياً للفطرة من قيودها و شوائبها، وهو تحرير للفط رة انطلق من اسلام الذات لله تعالى. عرف الشاطبي هذه الواقعة النفسية الكبرى بقوله)الاسلام أن يخرج العبد من حكم هواه الى حكم الله تعالى).[1] أليست الفطرة نفسها تقتضي هذا الخروج الى حكم الله تعالى؟ أليست الروح تقتضيه؟ بل جعل الروح والجسد يقتضيه؟

ان الاسلام يربط بين (الداخل) و(الخارج) وما لم يصف له الداخل لم يقُم له الخارج بحق وصدق. نستطيع ان نقدر للجيل الاول قدره في ضوء هذه الواقعة الكبرى، فهي قد مهدت للتنزيل من ناحية وحررت الفطرة من ناحية اخرى. هكذا قامت الأمة وقامت بها الدولة، ذلك هو الجيل الذي تأسس به الدين، فهو صورة الاسلام على الارض. و كل الاجيال التي تلته عالة عليه. وفي قلب هذا المثل الاعلى نجد اسلام الذات لله. ومن ذلك القلب الحي امتدت الحياة الى مشارق الارض ومغاربها فقامت دار الاسلام وتغيرت بنية العالم القديم.

١كتاب الاعتصام للشاطبي.

القلب الحي، ذلك مركز الدائرة في قيام الامة وقيام الدولة من جديد. راح نبض ذلك القلب الحي يتضاءل منذ سقوط الخلافة،[١] وراحت الامة تغيب في ظلمات القرون حتى وصلت الى واقعها الراهن الذي وصفه المفكر الباكستاني المعاصر محمد اقبال بقوله ان مشكلة العالم الاسلامي موت القلب.

المطلب الثاني بين الفطرة والنفس الحسية

تتجلى في ضوء ما تقدم الدلال ة العميقة لكلمة (فقد ابى) الواردة في الحديث الشريف. لماذا يأبى عبد دخول الجنة، بلغة الحديث، او "لا يريد" نعيمها؟ إن الوجه الآخر لهذا (الإباء) هو، بديهياً، أنه (يريد) النعيم الأرضي ارادةً تملك عليه أقطار نفسه وتحجب فيها الشعور بجمال النعيم الاخروي وتسقط قيمته. وبديهي أيضاً أن هذه الدنيوية المطلقة هي مطلب

١سقوط الخلافة الراشدية الذي بدأت به مرحله الملك العضوض الذي تنبأ به الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن واقعة سياسية فحسب و اذا كان قلم التاريخ قد سطر المعطيات السياسية لهذه الواقعة الفاصلة فان قراءة ما بين السطور تفتح أعيننا على معطياتها الاعمق. فاذا كانت فاذا كانت سقيفة بني ساعدة التي ولد ت فيها الخلافة الراشدة قد سجلت تسجيلاً صريحا قاطعا سلطان الامة فان سقوط هذه الخلافة كان يعني بديهيا سقوط سلطان الامة وقيام حكم السيف . هكذا فان الواقع العملي للمسلم لم يعد اسلام الذات لله كما قامت ع ليه الحياة السياسية للمسلمين طوال عصر النبوة والخلافة الراشدة. اخذ هذا الاصل الكبير الذي قامت عليه الامة والدولة يتآكل تدريجيا ويحل محله على الصعيد العملي اسلام الذات للقوة. هذا التغير العملي هو من الناحية النفسية انطفاء تدريجي لشعلة الروح او هو سبات للقلب يقود الى موته .

الاسلام أيقظ الفطرة وفجر ين ب وعها ، والملك العضو ض افقدها حيويتها فأفقد الشريعة منهجها الحقيقي وقوتها . وبهذه الخسارة المزدوج ة فقدت دار الاسلام مصدر قوتها و انفتح بابها للظاه رة الاستعمارية. بل ا نفتحت الباب للآفات المتنوعة الناتج ة عن فقدان الهوية.

الجسد المنفصل عن الروح أي أنها انحراف عن الفطرة الموسومة بامتزاجهما الذي تكون معه حركة الجسد نحو مطالبه منسجمة مع معايير الروح واهدافها. يشير القرآن الى هذه الارادة بقوله: (مَنْ كَانَ يريدُ العاجِلةَ عَجَّلْنا لهُ فيهَا مَا نشَاءُ لمَنْ نريدُ ثُمَّ جَعَلْنا لهُ جَهَنمَ يصلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورا).[١] هذه ظاهرة سيكولوجية يفتح الحديث الشريف أعيننا عليها: ان يصير الجسد هو جوهر الانسان، بينما هو في حقيقته مسكن الروح التي هي جوهر الانسا ن. كأن الانسان يستحيل بهذه الصيرورة كائناً اخر غير الذي خلقه الله سبحانه. اول ما نلحظه في هذا الشأن أن النتيجة المترتبة على هذه الصيرورة نتيجة ضخمة اشرنا إليها آنفا. فالشريعة هي منهاج الفط رة ، وليست هي مجرد أحكام منزلة ، ومن هذا التطابق تستمد هذه الاحكام قيمتها الحقيقية ، فاذا غابت الفطرة بقيت من الشريعة رسومها دون حقيقتها و روحها . والأمة تجسيد للشريعة المنزلة وللفطرة، فاذا غابت الفطرة فهل للأمة كيان حقيقي؟ ولو افترضنا في هذا السياق جماعة تطبق احكام الشريعة فهل نستطيع ان نقول انها هي الامة؟ وهل هي على شاكلة الجيل الاول؟ بل هل يمكن عملياً، في هذا السياق المفترض، أن تقوم هذه الجماعة المتخيلة؟ انها ستقوم ، في هذه الفرضية، وسط عالم معادٍ للإسلام من كافة الجهات، فأية قوة ستكون لهذه الجماعة ترد عنها غوائل هذا العالم المعادي للإسلام على الصعيدين الاجتماعي والسياسي، واية ق وة ستكون للشريعة تحميها من هذه الغوائل بعد ان فقدت روحها وحقيقتها وصارت دين قوم لم يُسلمو ا ذواتهم لله بل اسلموها لغير الله من مال او سلطة او جاه او شهوات جسدية وصارت اهوا ؤهم الهتهم (بلغة القران)[٢].

١الاسراء ، الآية ١٨ .

٢"أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا" الفرقان الآية ٤٣. "أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله افلا تذكرون" الجاثية الآية ٢٣ .

ان قوة الاسلام الغلابة التي تجلت في الفتوح كانت شريعته الحية اي المتجسدة في الامة . فهل ينتصر اليوم بشريعة ميتة؟! انه ،بحقيقته الفريدة، اقوى من قوى الارض كلها مجتمعة، وبها عبر سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه دجلة وهو في فيضانه الجنوني، بجيش كان برجالته وخيالته يمشي فوق ماء دجلة دون ان يمسه الماء سائرًا الى قتال العدو على الجهة الاخرى من دجلة.[١] و بهذه الحقيقة الفريدة قامت دولة الاسلام في يثرب وانتصرت على امبراطوريتي الروم والفرس ثم اقتحمت اوروبا وقامت في قلبها ثمانية قرون (دولة الأندلس وحضارتها). فكيف اختفت هذه القوة الغلابة وغاب الاسلام بعد أن كان قطب الرحى في العلاقات الدولية طوال قرون؟ إن التفسير الواقعي الذي تقتضيه طبيعة الاسلام نفسها هو التآكل التدريجي لأصل الدولة وأصل الامة معاً، أصلهما الذي هو إسلام الذات لله والذي مهد للتنزيل ولاسترجاع الفطرة. ولم يذهب هذا الأصل لكنه ضعف ضعفاً شديداً وبقي في آحاد الناس على ندرة. ووقع في حياة المسلمين ما حذّر منه القرآن بقوله: " أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً " [٢] و" أَفَــرأيتَ مَنِ اتَّخ ذَ إِلَٰهَهُ هَواهُ وأضَلَهُ اللَّه عَلىٰ عِلْمٍ وخَتَمَ عَلىٰ سَمعهِ وقَــلْبهِ وجَعَلَ عَلىٰ بصَرهِ غِشَاوةً فمَن يــهْديهِ مِن بــعْدِ اللَّهِ أفلَا تذكَّرونَ [٣]"

أضاع المسلمون هذا الأصل وغرقوا في الشهوات واتخذوا الهتهم أهواءهم ثم قالوا لا اله الا الله وحرصوا علىالصلاة والقيام والصيام ثم قام من بينهم

١تاريخ الرسل والملوك . ابن جرير الطبري. الكامل في التاريخ. ابن الاثير. هذه واقعة من وقائع التاريخ الاسلامي خلت مناهجنا الدراسية من الإشارة اليها فج هلتها اجيالنا الحديثة منذ قامت لنا مدارس وجامعات ، رغم دلالاتها العميقة وصلتها بالهوية الثقافية لدار الاسلام . واضح ان غياب هذه الواقعة التاريخية عن مناهجنا الدراسية وبالتالي ع ن وعي ناشئتن ا يشير الى طبيع ة مؤسساتنا التعليم ية.

٢الفرقان ، الآية ٤٣ .

٣الجاثية، الآية ٢٣ .

من يدعو الى اقامة دولة الاسلام و يجمع حوله المنادين بها على شاكلته، فهلهذا هو السبيل الى قيامها من جديد؟ طلبوا الحسناء وعجزوا عن دفع مهرها.[١] لقد جرت تجارب من هذا القبيل فيعصرنا هذا باءت بالفشل، وحق لها ان تبوء بالفشل و أن تنتصر عليها القوى المعادية للإسلام. لقد كانت من وراء الشعار الجميل كشفاً لعورة المسلمين وخطيئتهم الكبرى. أبى الله وأبى الحق ان تقوم الدولة والامة غائبة، فإنما الدولة بنت الأمة، ولو قامت الدولة وطبقت الشريعة لكان ذلك خلاف منهج الاسلام وعاد بالوبال على الشريعة وعلى الناس الدولة في الاسلام ذروة عبادة الله، أفتقام لتعبد بها آلهة غير الله من الشهوات والمنازع الجسدية ولتطبق الشريعة بآراء نابعة من النفس الحسية لا من الفطرة . هكذا يقع الفهم الفاسد للكتاب والسنة، والقياس الفاسد والاجماع الفاسد لو وقع.

المطلب الثالث الهوية الثقافية لدار الاسلام

توشك النفس الحسية ان تكون قطب الرحى في حياة المسلمين. وهذا داء انتقل اليهم من الامم الاخرى، وصدقت فيهم نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم (لتتبعن سنن من كان قبلكم حتى اذا دخلوا جحر ضب دخلتموه وراءهم).[٢]

النظر في تاريخ المجتمعات الاوروبية يرينا حقيقة من حقائق التاريخ الكبرى، وهي حقيقة قامت عليها شواهد وبراهين لا ترد. فهذا التاريخ بدأ بمبدأ خطير هو ان البشر سقطوا في الخطيئة سقوطاً نهائياً لا يكون لهم معه قيام منها، وذلك بسبب الخطيئة الاولى او الأصلية peche originel التي اقترفها ادم عليه السلام في الجنة وورثها الجنس البشري فأهلكته اذ أسقطته في خطيئة لا قيام منها، ولعجزهم الروحي هذا ارسل الله سبحانه

١ومن يطلب الحسناء يرخص مهرها وما مهرها إلا التقى والعزائم (للباحث)

٢صحيح البخاري. ج ١٣ / ٣٠٣ ط، حديث رقم ٧٣١٩ط، دار السلام، الرياض.

اليهم ابنه الوحيد ،المسيح، ليف ديهم بدمه على الصليب، فكل من آمن بهذا الفداء حصل على نعمة الخلاص.[١].

هكذا ينال الانسان النعمة، بل يصبح باراً عند الله سبحانه وهو غارق في الخطيئة، يسرق ويزني ويسكر ويقتل و يفعل ما يشتهي وهو بار بفضل الفداء. أليست هذه العقيدة التي تطلق غرائز الدنيوية من عقالها تفسر تاريخ اوروبا في العصور الوسطى الموسومة بالبربرية كما قال المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون Gustave LeBon والتي لم ينجُ منها كما قال الا اسبانيا العربية بفضل الحضارة الاسلامية التي قامت فيها ثمانية قرون؟ وهل كانت الحروب الصليبية بأهوالها الا امتداداً لتلك البربرية الى الارض المقدسة؟[٢] لقد جرت تلك الاهوال تحت الصلبان واقترفت تلك الجرائم تحت سمع الكنيسة وبصرها وتصديقا مباشرً ا لعقيدة الفداء. وهل كانت محاكم التفتيش الامتداد الآخر لتلك البربرية؟ كانت هي ايضا تصديقا مباشرً ا لعقيدة الفداء إذ كان القضاة رجال الكنيسة.[٣] وتصديقا مباشرًا ايضا لهذه العقيدة كانت النزعات الليبرالية التي كانت تغلي بها اوساط رهبان العصور الوسطى Les milieux des clercs dumoyen age والتي كانت ارهاصات بالعصر الحديث الموسوم بالدولة الحديثة Etat moderne و بالظا هرة الاستعمارية Colonialisme. نستطيع ان نرى الدنيوية المطلقة في اساس الدولة الحديثة الذي عبر عنه توماس هوبز Thomas Hobbes بتعريفه الانسان بانه جسد وحركة Corps at mouvement.[٤] وليس هو الا واحداً من ملهمي الثورة الفرنسية او

١الكتاب الشريف – التوراة، والمزامير وصحف الانبياء والانجيل. The Holy Bible. دار الكتاب الشريف . بيروت . لبنان . ٢٠٠٢. الانجيل الشريف. ص٢٢٠ و ٢٢٢.

٢غوستاف لوبون . حضارة العرب. Gustave Le Bon. Civilisation Des Arabes ترجمة عادل زعيتر. دار النشر: عصير الكتب . ص 16 ، 285 ، 286 ، 287 .

٣المرجع السابق . ص٢٤٣ ، ٢٤٤ ،٢٤٥ .

٤ Thomas Hobbes . Leviathan . Editions - Gallimard . 2000 . Introduction . pp10, 11, .21

ثورة الغرب الكبرى (١٧٨٩)م التي آمنت بالنفس الحسية اساساً للدولة. هذا الايمان اقترن به انكار للروح وللحياة الاخرى حمل روبسبيير على أن يقول) من ذا الذي فوضكم أن تقولوا للناس انه لا يوجد شيء الهي ... وان الروح مجرد بخار خفيف يتبدد عند فتحة القبر؟!).[١] وهل كانت نظم الاقطاع والبرجوازية والرأسمالية الا أشكالاً للدنيوية المطلقة تكمن وراءها عقيدة الفداء؟ وكما لم يكن للروح حضور في حياة الدولة الحديثة لم يكن لها حضور في حيا ة المجتمع الدولي الذي اسسته الدول الاوروبية الحديثة.[٢]

ومع غياب الاسلام، أي مع غياب الامة، راح تيار المادية يكتسح العالم. – لقد كانت تصده قوة روحية عقلية راحت تتلاشى منذ القرن السادس عشر وحضا رة كانت تجسيداً حياً لامتزاج الروحي والدنيوي ولاتصال الدنيا بالأخرة. وما يزال هذا التيار يصعد ولا يجد ما يوقفه اذ ما يزال الاسلام غائبا بغياب الامة . ينبغي ان نتنبه الى ان المادية التي هي قوام عالمنا المعاصر، واقعاً وعقيدة ، تتغلغل في كافة شعب الحياة، في السياسة والقانون والاقتصاد والعائلة والعلاقات البشرية والعلاقات الدولية وتعامل الانسان مع الطبيعة ومع البيئة وتفسيره للتاريخ ونظره الى المستقبل. ومع صعود تيار المادية اصبح مستقبل البشرية والحضارة مجهولا بل اصبح العالم على شفا حفرة من الهلاك والعذاب اللذين يفوقان كل ما قاسته البشرية من قبل. ولن تنجو القوى الشريرة نفسها المستفيدة اليوم من انتصار المادية من هذا المصير وسيجرفها التيار كما يجرف ضحاياها ويذهب الكل الى الظلام والجحيم.

١د. لويس عوض . الثورة الفرنسية . الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢ . ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

٢المجتمع الدولي المعاصر هو امتداد للمجتمع الدولي الحديث الذي أسسته الدول الأوربية الحديثة بمعاهدة وستفاليا Westphalia الشهيرة التي أسفر عنها مؤتمر وستفاليا المنعقد عام 1648 .

في اعماق احداث العالم المعاصر يجري صراع بين هويتين ثقافيتين لا ثالث لهما تتنازع ان حياة العالم ومصيره، الهوية الثقافية لدار الاسلام والهوية الثقافية للغرب. جوهر الاولى الفطرة القائمة على ثنائية الروح والجسد. وجوهر الثانية النفس الحسية بطابعها المطلق . كلتا الهويتين تدور على بنية الانسان واصولها وعناصر البناء القائمة عليها، وعلى مذاهب التفكير والشعور والذوق والقيم الاخلاقية وطرائق السلوك والعمل الصاد رة عن البنية والاصول ودعائم البناء. كلتاهما تدور على شخصية الانسان التي هي حجر الزاوية في بناء الحياة وعمران الارض. فالاختلاف بينهما عميق اذن بل اعمق ما يكون الاختلاف.

ويكفي للدلالة على عمق الاختلاف ان نقول ان احداهم ا تصل الارض بالسماء في مزاج واحد لا يقبل التجزئة في اي شأن من شؤون الحياة وان الاخرى تفصل بين الارض والسماء فصلا جذريا يجعل الانسان كائنا أرضياً ليس للسماء دخل في حياته الدنيوية . يستحيل بمقتضى هذا الاختلاف العميق ان تتعايش هاتان الهويتان الثقافيتا ن. ولا معنى هنا لدعاوى التقريب أو الحوار أو العمل المشترك، فهذه دعاوى تقوم على الوهم أو الايهام لا على العلم والحقيقة. ولو أن كلتيهما كانت تفريعاً على اصل مشترك لكان لهذه الدعاوى مساغ. لكن قيامهما على أصلين متضادين يقودهما حتمياً الى التنافي والتدافع والصراع. ولكل منهما في الصراع طرائقه واسبابه ووسائله، تماما كماان لهما أصلين متضادين وغايتين متضادتين، إذ الفطرة (التي تنتهي كما راينا آنف اً الى هيمنة الروح) لها طرائقها واسلحتها والنفس الحسية(التي تنتهي الى هيمنة الغريزة الجسدية) لها طرائقها واسلحتها.

ودون الدخول في تفاصيل هذا الاختلاف يكفي أن نعلم حقيقة تاريخية ثابتة هي ان المسلمين في عصور ازدهار الحضارة الاسلامية تعاملوا مع الخصوصية الاوروبية تعاملاً تجلى، على سبيل المثال، في احترامهم، وهم سادة اسبانيا بل أوروبا، قوانين الاسبان وتقاليدهم، وهو احترام لم يمنع تأثر الاسبان بالهوية الثقافية الجديدة بحيث تغل غل الاسلام، كما يقول

الكاتب الاسباني الشهير انطونيو جالا، في روح كل اسباني،[١] و بحيث ان ما شاهده الاديب الاسباني سواريز Suarez حمله على ان يشكو أن الاسلام اثر في الذات الاسبانية [٢]. وبديهي ان انطونيو جالا وسواريز يشيران الى ما هو اعمق من اقتباس اللغة و اساليب التعبير واشكال التصرف و الحياة العملية. وطبيعي ان يكون للهوية الثقافية الجديدة التي عايشها الاسبان هذا التأثير العميق اذ ان جوهرها الفطرة التي نزلت الشريعة تعبيراً عنها وإبانة لمنهجها والتي يلتقي عليها البشر في كل زمان ومكان. وبالمقابل فان الغزو الثقافي الغربي للمجتمعات المسلمة استهدف منذ احتلال نابليون بونابرت لمصر في عام ١٧٩٨ طمس الهوية الثقافية لدار الاسلام وإبادتها. تمثل حرب البوسنه والهرسك ١٩٩١- ١٩٩٥ ميلادية محاوله شرسة لطمس هذه الهوية، وهي حرب اقترف فيها الصرب كافة انواع الانتهاك للقانون الدولي الانساني) قتل، تمثيل، تعذيب، اغتصاب، ابادة جماعية، اعتداء على المستشفيات، معسكرات اعتقال(في عدوانهم الجنوني على المسلمين الذي لم تكن لديهم القدرة العسكرية اللازمة للدفاع عن النفس. بيد أن اوروبا التي استغاث بها المسلمون كانت بصمتها المريب شريكافي العدوان وكان في امكانها ايقافه من بدايته او تزويد المسلمين بما يدافعون به عن أنفسهم .

وفي عصور ازدهار الحضارة الاسلامية تجلت الحيوية الروحية للمسلمين في كرمهم العلمي غير المحدود إذ كانوا

طوال ستة قرون كما يقول غوستاف لوبون اساتذة اوروبا في العلوم والمعارف[٣] وإذ تدفق نتاجهم العل مي الغزير عليها اذ اعطوها المنهج

١ذكر انطوني و جالا هذه الحقيقة التاريخية في حوار مع صحيفة لاجو راندا المكسيكية. انظر http//www.almuslimon.net/article-view.php?id-18628

٢ Lewis Bernard. Les arabes dans l'histoire. Editions: Ala Baconniere. Neuchatel Societe francaise du Livre. .8591

٣غوستاف لوبون. حضارة العرب .ترجمة عادل زعيتر. ص٢٣ .

التجريبي الذي ولد في احضان حضارتهم[١] والذي انطلقت منه النهضة العلمية الاوروبية الحديثة . وبالمقابل فان الغرب يضنّ اليوم على العالم الاسلامي بأسرار التكنولوجيا و لا يتعامل معه باعتباره شريك اً علمي اً بل يحرص على الانفراد بالق وة العلمية بل يستحدث من النظم ما يعود على مدارس المسلمين و جامعاتهم بالدمار ويقود الى تشويه العقل ال عام.

التطور التاريخي لدار الاسلام سار منذ سقوط الخلافة الراشدة في طريق توهين هويتها الثقافية ثم تدميرها (انظر فيما تقدم الهامش ١٣) المتعلق بالمعطيات العميقة لسقوط الخلافة الراشدة)، ورغم ما اصابها من وهن منذر بالدمار فان هذه الهوية بقيت تنتج اثارها في حياة دار الاسلام وحياة العالم من حوله، لقد كانت نواة للحضارة مدت جناحيها فضمت الشرق والغرب، وكانت رغم انحراف الخلافة عن مسارها نواة لدولة القانون الاولى في تاريخ العالم. بيد ان عوامل الت وهين بقيت تعمل عملها في حياة المسلمين طوال قرون (الملك العضوض) وافضى انحراف الخلافة وانهيار سلطان الامة الى تآكل الاساس الذي نهضت عليه هويتنا الثقافية، اي اسلام الذات ش، وبينما كانت الامة تشهد ان لا اله الا اللهوان لا معبود بحق الا الله فإنها في واقعها العملي كانت قد اذعنت لحكم السيف واسلمت نفسها للغالب رغماً عنهاوجبرا، وقيل لها: هذا قدر الله الذي لا محيص عن

١غوستاف لوبون. ذات المرجع. ص٢١.

والحقيقة ان المنهج التجريبي الذي كان على حد عبارة غوستاف لوبون) من عمل العرب وحدهم (كان ثورة في تاريخ العلم . وكما كان المنهج التجريبي أساساً للرقي العلمي والصناعي والتكنولوجي في الاندلس أصبح أساساً للنهضة العلمية الحديثة في اوروبا. على أنه ينبغي أن نتنبه الى حقيقة تاريخية اخرى هي أن العلم الحديث انحرف على يد الأوروبيين عن المفهوم الاصلي للمنهج التجريبي الذي ابدعه العرب، لقد كان في الاصل ثمرة حضارة قامت على امتزاج الروحي والمادي ثم أصبح في تطبيقه الحديث قائماً على تكريس المادي تكريساً مطلقاً قطع المنهج عن مواصلة عطائه الاول للحضارة البشري ة .

التسليم له ونهض من يصبغ هذا الاذعان بصبغة شرعية تقعد بالأمة عن فريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

هكذا تمخض الملك العضوض عن تشويه عقي دة القضاء والقدر وعن نشأة تقليد راح ينمو عبر القرون ويضعف الشعور بالمسؤولية الشرعية، وما يزال هذا التقليد قائما يكرس اللامسؤولية حيال المنكرات. وواضح ان هذا التقليد الذي احل إزاء المنكرات روح المسالمة محل روح المقاومة قد فتح على دار الاسلام أشكال الع دوان التي انتهت الى الظاهرة الاستعمارية الحديثة. ردد المسلم وما يزال يردد (الله غالب) حيال الخير الواقع فرحاً معجباً به وحيال الشر الواقع مستسلماً خانعاً له. لقد كانت عقيدة القضاء والقدر التي هي رديف اسلام الذات لله مصدراً لأقوى صور السببية في التاريخ، لقد تجلت في الفتوح وانشاء دار الاسلام ثم في بناء حضارة تفردت بامتزاج الروحي والدنيوي واحدثت بهذا الامتزاج ثورة في تاريخ العلم. هذه العقيدة استحالت في مفهومها السلبي الذي اشرنا اليه ملجأ نفسياً وعزاءً وتبريرً ا للتعايش مع ما هو ضد الشريعة، وبعد ان كان تدافعاً للأخذ بالأسباب استحالت تدميراً للسببية تفاقم عبر عصور السبات والظلام.

واضح ان يد (الملك العضوض) التي شوهت الحياة الاسلامية بالقضاء على سلطان الامة امتدت الى ضمير المسلم لتطفئ فيه وهج الروح التي كانت وراء حركه الاسلام ، لقد امتدت الى (الباطن) ليتعايش مع (الظاهر) على حساب الفطرة . وبغياب الفطرة وصلت شخصية المسلم الى نقيض من نستطيع تسميته (انسان يثرب) الذي كونه الاسلام في عصري النبوة والخلافة الراش دة. هذه نهاية النفق المظلم والوعر الذي استغرق أربعة عشر قرنا. غابت الفطرة ولم تذهب، انها باقية في اعماق الذات كما صنعتها يد الله من طين الارض ومن نفخة الروح (لا تبديل لخلق الله)، باقية وعليها غطاء ثقيل من ركام القرون. هذه القرون الاربعة عشر برهان على ان الهوية الثقافية لدار الاسلام غير قابلة للفناء لان قوامها الفطرة غير القابلة للفناء. انها مفقودة لكنها موجودة. وبين الوجود والفقد يكمن مصدر

العذابات والا لا مالتي لن تنتهي حتى يعود العالم الاسلامي الى نفسه فيكون دار الاسلام من جديد.

اننا اليوم في موقع (البين بين) اذا قارنا انفسنا بالأمم الاخرى، وهنا مشكلتنا الكبرى او الاولى التي ترجع

إليها كافة مشكلاتنا السياسية والاقتصادية والاخلاقية والتعليمية والثقافية والاجتماعية. و لن يتسنى لنا أن نحل مشكلاتنا حلاً حقيقياً حتى نخرج من هذا الموقع الذي انتهت اليه مسيرتنا التاريخية عبر قرون الانحطاط والضياع عن الذات. لا نريد ان نبدل ذاتنا، انها ضالتنا التي نريد ان نلتقي بها مرة اخرى. يعلم التاريخ العام، تاريخ الدول والحضارات، حصيلة اللقاء الاول التي ما تزال وستبقى تدوي في سمع التاريخ. وسيعلم حصيلة اللقاء الثاني الذى هو حتمية من حتميات التاريخ.

في هذا الموقع الذي يتأرجح بين الوجود الفعلي واللاوجود توجد شتى انواع المعاناة: المتاعب الناجة عن الضياع، آلام المخاض التي تسبق الرجوع الى الهوية وتمهد له (آلام الميلاد الثاني)، و مخاطر الانزلاق نحو موقع اخر نجح د فيه ذواتنا ونكفر فيه بهويتنا و نقتلع انفسنا من جذورها لنكون غيرنا، وقد رأينا فيما تقدم من هم غيرنا وما هي هويتهم الثقافية (المطلب الثالث من المبحث الثاني) .

في هذا المنزلق الخطير والمخيف تبرز الكلمة الواردة في الحديث الشريف (... فقد ابى) والتي يدور عليها هذا البحث. لقد انتهينا فيما تقدم الى أ ن هذا (الاباء) هو ثمرة الخروج على الفطرة القائمة على ثنائية الروح والجسد أو هو ثمرة انطفاء شعلة الروح واكتساب النفس الحسية قيمة مطلقة تكون معها هي محور الوجود البشري، وعندئذ تختفي الاخرة من الوعي ولا تعود الجنة مطلباً للإنسان وتصبح الدنيا هي الجنة . وباختفاء البعد الأخروي سوف تولد معايير جديدة للسياسة والاقتصاد والاخلاق والقانون والعائلة وللدين نفسه، سوف تختفي دار الاسلام .

نستطيع أن نرى مثلاً على اختفاء هذا البعد في تفكيرنا السياسي والدولي الذي اصبح دنيوياً بحتاً لا نختلف فيه عن غيرنا، وهذا انحراف خطير

قادنا الى الكوارث الوطنية والدولية . وهذا مثل عملي يرينا اختراق الغرب لدار الاسلام، وهو اختراق يفوق الاحتلال في خطورته لأنه يهدد هويتها الثقافية اي وجودها نفسه. ولن تغني الارض وكنوزها والرفاهية المادية والتكنولوجيا والقوة العسكرية عن الهوية الثقافية لأية أمة.

الحديث الشريف يشير إذن الى هذا الانحراف العميق الذي اصاب شخصية المسلم وجعلها نقيض (انسان يثرب) الذي بناه الاسلام، وهو انحراف يصرفه عن طلب الجنة وهو يحيا حياته الارضية، ثم يجعله في غم رة دنيويته (يأباها) لأن فكرتها تنتقص من هذه الغمرة وما فيها من سحر واغراء يستفزانه الى عدم الاستسلام لها ولأنها تمسه فيما هو أعز شيء لديه، إذ هي تكسر غمرته الدنيوية بالتفرقة بين الحلال والحرام. هذا الانحراف السيكولوجي الذي تغذيه الشهوات الدنيوية من مال وجنس وسلطة وجاه من شأنه أن يتطور ليستحيل عداءً عميق الغور لفكرة (الجنة) باعتبارها محور الحياة الدنيوية وغايتها النهائية، وهو عداء سينصب عاجلاً او اجلاً على من ينادي بهذه الفكرة او يمثلها في سلوكه العملي. عندئذ يصير الانحراف السيكولوجي انقساماً اجتماعياً تعادي فيه فئة، فئة اخرى بوسائل شتى من العداء الجلي والخفي، وهو عداء من شأنه أن يصير حرباً ضاريةً تستخدم السلطة السياسية للتنكيل بالخصم وسحقه واستئصاله. وبدلاً من ان يحارب المجتمع المسلم عدوه يحارب نفسه، وبدلا من ان يقضي عليه عدوه يقضي هو على نفسه . والدولة التي خلقها الله سبحانه وطورها البشر لسعادتهم تستحيل الق وة الكبرى لشقائهم. وواقع المجتمعات المسلمة المعاصرة برهان لا يدحض على هذه الحقيقة .

العالم الاسلامي المعاصر يهدم نفسه بنفسه. وعدوه الذي يتربص به الدوائر ينمى هذا الصراع الذي يمزقه من داخله، وهو يدفعه دفعا نحو الانتحار الذاتي الذي يلبس ثوب الحياة والتطور والحضارة . تتعاون على تنمية هذا الصراع وسيلتان:

تسعير نار الشهوات الجسدية، ودفع المؤسسات التعليمية في طريق التعليم غير الحقيقي الذي يقضي على الق وة العقلية. ورغم انه يستخدم هاتين الوسيلتين بعلم وفن ودهاء فانه، وهو الذي يسعى لاستئصاله، يبدو بريئاً للنظرة غيرالفاحصة.

اما النظرة الفاحصة فإنها ترينا اهم حقيقة من حقائق عالمنا المعاصر: الصراع المستعر بين الهوية الثقافية للغرب والهوية الثقافية لدار الاسلام. وليست الاحداث الدولية الا مفرزات هذا الصراع غير المتكافئ. اخطر ما في هذا الصراع الذي تشتد ناره استعارا أن احد طرفيه يشحذ اسلحته ويطورها بوعي وحذق وعلم ومهارة وان الطرف الاخر لا يعي انه في صراع وانه مهدد باستئصال شأفته.

والغرب يجاهر بانه في هذا الصراع الوجودي يخوض حرباً صليبيةً . صرح بهذا رئيس وزراء بريطانيا توني بلير قبيل احتلال العراق في ٢٠/٣/ ٢٠٠٣ وصرح به رئيس الولايات المتحدة الامريكية جورج بوش ووزير دفاعه رامسفيلد. اننا اذن امام حرب صليبية ممتدة منذ عام ١٠٩٥م حين شنت اوروبا، كنيستها وملوكها ، حربها الصليبية الاولى على الاسلام. لكن استراتيجية هذه الحرب تطورت تطورًا جوهريا، فلم تعد الجيوش والاساطيل هي اول الاسلحة بل اولها وابلغها وفاءً بالمطلوب هو الاختراق السلمي لدار الاسلام بوسائل بالغة الفتك تستهدف القضاء على إنموذج – الانسان المسلم – وهو اختراق يتغلغل فيها ليطعن قلبها ويوقف خفقانه، وقد يحتاج الى الجيوش والاساطيل وقد لا يحتاج.

هذه الحرب السلمية الطاحنة التي تجرى في عقر دار الاسلام تضرب اليوم هويتها بمطرقتين ثقيلتين، الليبرالية والتعليم. بالأولى يتها وى الشباب المسلم كما يتهاوى فراش يحترق بمصباح شديد الاضاءة شديد الاغراء، يتهاوى بالشهوات التي فتحت له ابوابها على انواعها حرامها وحلالها. وبالثانية يتهاوى بالدمار العقلي الذي تحدثه مسيرة تعليمية طويلة تنتهي بشهادات لا وزن علمياً حقيقياً لها. نستطيع ان نرى الجبهات الكبرى لهذه الحرب: البيت والمدرسة والجامعة ، هذه المؤسسات الاساسية التي ينهض

عليها هيكل الدولة . هذه هي حصون الحضا رة ومراكز انطلاقها و مرابض جنودها فإذا انهارت فماذا يبقى بعدها؟

ماذا يبقى بعدها؟ لا ينحصر خطر السؤال في دار الاسلام. فالإسلام الذي هو منهاج الفط رة البشرية قد جعل دار الاسلام دار البشرية كلها في مشارق الارض ومغاربها، الدار التي تمتد بطبيعتها لتطبق الارض كلها ولتكون ثقافة الشع وب كلها هي ثقافة الفط رة القائمة على امتزاج الروح والجس د، امتزاجهما الذي تقوم عليه الحضا رة عبر الزمان والمكان وعبر الوانها المختلفة . الحرب (السلمية) الطاحنة التي تجري اليوم في عقر دار الاسلام ليست حرباً للحضارة كما تروجه الدعاية المضللة وكما توحي به مظاهر المدنية والتقدم الخادعة، بل هي حرب على الحضارة وعلى الجنس البشري.

ورغم الضعف الظاهر لدار الاسلام فان وراءها وأمامها وحولها جيشاً خفياً من قوى الحياة والطبيعة يكفل لها البقاء ثم استئناف السير الذي امتد ثلاثة عشر قرناً . ورغم القوة الظاهرة لدار الحرب فان جرثومة الفناء التي تكمن في داخلها ترشحها للسقوط الحتمي الذي يقترب موعده يوماً بعد يوم.

نستطيع أن نقول ان العالم الاسلامي المعاصر يسير في طريقين متعاكسين: طريق البقاء الذي ينتهي الى عودة دار الاسلام، وطريق الفناء الذي ينتهي الى صيرورته جزءً من كيان عالمي يصنعه الغرب منذ ان تبلورت هويته الثقافية وقامت نهضته الحديثة. ورغم ان بقاء دار الاسلام حتمية تاريخية متصلة بمصير البشرية والحضارة ومتصلة بالحق الازلي وبالفطرة اللذين قام عليهما وجودها فان عوامل الفناء التي يغذيها عدوها من شأنها ان تطيل أمد عذاباتها وآلامها التي تسبق ميلادها الجديد.

ولا ريب في أن هذه الحتمية التاريخية تصارع عوامل الفناء وانها لا تقدم النصر على طبق من ذهب بل تستلزم الكفاح لأجله. ان كل جهد مفترض قد يبذله البيت (وهو لا يبذله اليوم إلا ما ندر) يقوي فطرة النشء هو جزء من هذا الكفاح المصيري لا يستهان به.

المطلب الرابع : الصراع المصيري بين الغرب وبين دار الاسلام .

دار هذا البحث على استخراج القوة الدلالية للكلمة الواردة في الحديث الشريف (... فقد أبى). ولدى أول قراءتنا للحديث الشريف لمعت هذه الكلمة بإشارتها الى ما تنطوي عليه من معانٍ بالغة الأهمية تتصل بالطبيعة البشرية وبالإسلام الذي جاء تكريساً لها ودعوةً إلى جلاءك وامنها. هكذا دفعتنا هذا الكلمة دفعاً الى السير وراء هذه المعاني التي تقوم عليها خصوصية الاسلام وخصوصية المسلم. وعندئذ لمعت هذه الكلمة بإشارة أخرى، إشارتها إلى الصراع الذي يخوضه الاسلام اليوم. وبهاتين الاشارتين تجلت لنا أهمية هذا البحث .

قادنا السير وراء الدلالة السيكولوجية لكلمة(أبى) الى مقومات الهوية الثقافية لدار الاسلام، هذه الهوية التي انفصل عنها واقع العالم الاسلامي المعاصر، أي أنه قادنا إلى المشكلة الكبرى للعالم الاسلامي، هذه المشكلة التي تنتهي اليها مشكلاته على أنواعها. فهذا إذن عمل تحليلي يمتد بين اللغة وبين الموضوع الذي تتصل به.

عبارة (الهوية الثقافية) تنطوي بلا ريب على الجواب على سؤال: من هو الانسان؟ ما منهجه في التفكير؟ وكيف يشعر بالعالم من حوله بأناسيه وأحداثه وأشيائه؟ وما منهجه في التذوق ؟ وما هي المعاني التي تستولي على وعيه وتقوده؟ وما هي أهدافه وغاياته القريبة والبعيدة؟ وما هي وسائله الى هذه الاهداف والغايات؟ فلا وجود حقيقياً إذن للإنسا ن ، فرداً كان أو جماعة أو أمةً أو دولةً، من غير أن تكون له هوية. والقضاء على الهوية هو بلا أدنى شك قضاء على الوجود الحقيقي للإنسان. هكذا نستطيع أن نرى خطورة الصراع الذي يخوضه الاسلام منذ أن فقدت دار الاسلام هويتها ومنذ أن راحت تفقد اسمها الذي ولدت به وتدعى باسم مصطنع يوافق واقعها الجديد (العالم الاسلامي). فكأن كلمة (أبى) الواردة في الحديث الشريف تستبق التطور التاريخي الذي أفضى الى واقع المسلمين المعاصر.

لماذا فقدت دار الاسلام هويتها؟ وكيف وقع هذا المصاب الجلل الذي تفوق آثاره آثار كل مصاب آخر والذيوقع وقوعاً متدرجاً استغرق العصور؟ وهل يمكن أن يكون فقداناً أبدياً للهوية كما يعتقد أعداؤها؟ أم الحقيقة غير ذلك؟وهل ينفسح أفق الاحداث لعودتها؟ فهذه عناصر المشكلة التي يطمح هذا البحث المتواضع إلى طرق بابها ورؤية ما وراءالباب.

قادنا البحث الى حقيقة جوهرية: أن الفطرة (الطبيعة البشرية كما برأها الله تعالى) هي قلب الهوية الثقافية لدار الاسلام، ومنها تنبعث كافة عناصر هذه الهوية. وقادنا البحث الى واقع يتصل بهذه الحقيقة الجوهرية، الانفصال عن الفطرة الذي يفضي الى الانفصال عن هذه الهوية أي الى غيابها واحتجابها وانقطاعها عن إحداث آثارها، فهي موجودة وعاطلة في آن واحد. هذا الواقع كان ثمرة مرة للتطور التاريخي لدار الاسلام، وهو تطور بدأ مع سقوط الخلافة الراشدة وحجبه الازدهار الثقافي وعظمة الفتوحات والانتشار في الارض وحيوية الحضارة التي هزت أوربا ومزقت ظلامها ودفعتها على طريق النهضة Rnaissance.[١] تلك كانت آثار الهوية الثقافية التي بقيت تعمل عملها بقانون العزم الاول ،وتؤتي ثمراتها الرائعة في العلم والادب والفن والصناعة والتكنولوجيا[٢]، وتسري في وعي الشعوب

١في خطابه الذي ألقاه في مجلس النواب الاردني في صيف عام ١٩٩٨ قال جاك شيراك رئيس الجمهورية الفرنسية الاسبق ان الحضارة العربية الاسلامية في اسبانيا كانت منطلق النهضة الاوربية "La Civilisation arab – musulmane d'Espagnemetait le point de depart de la Renaissance evropeenne"

٢انتهى التحقيق التاريخي الى ان التكنولوجيا ظهرت على أيدي العرب ، كما قيل في احدى جلسات الحوار العربي – الاوربي Le dialogue euro- arabeالتي انعقدت في غضون العام ١٩٧٧ في كلية الحقوق والعلوم السياسية بجامعة اكسن – مرسيليا (فرنسا) والتي حضرها الباحث عندما كان طالباً للدكتوراه في الكلية المذكورة. ولا شك في أن هذه الاشارة الى تاريخ التكنولوجيا ترمي الى ما عرفه الاوربيون في مجاورتهم للحضارة العربية الاسلامية في اسبانيا (الاندلس) ، تلك الحضارة التي

ووجدانها وتحرك عقولها وأرواحها . فهذه إذن شهادة التاريخ على أن الفطرة التي بعثها الاسلام من مرقدها وأنشأ بها (الأمة) تطلق القوى المخبوءة في الانسان. وقد راحت تلك القوى تغير العالم القدي بعمق وتفتح ميلاد العالم الحديث. بيد أن (قانون العزم)، ذهب يتباطأ في عمله تباطأً متزامناً مع انحلال الفطرة في الذات المسلمة. وجاءت لحظة التوقف بعد مرحلة التباطؤ التيتشبه حالة الاحتضار الطويل، وشهد القرن السادس عشر هذه اللحظة التاريخية التي حتمتها نواميس الحياة البشرية .وجفت المنابع التي فجرها الاسلام في يثرب وأفاضت على الأرض ماءً غدقاً طوال قرون. ولم تغن عن جفاف المنابع وانقطاع مائها الغدق خلافة بني عثمان وعظمة فتوحاتهم في آسيا وأفريقيا و أوروبا وعدالة خلفائهم .

تواصل التطور التاريخي الذي انتهى الى انهيار دار الاسلام والى الغاء الخلافة رسمياً في العام ١٩٢٤، وهو في الحقيقة صدىً بعيد لسقوط الخلافة الراشدة وكشف لعلة عميقة أصابت الأمة نفسها بهذا السقوط الذي أزال سلطانها والذي دوى في سمع التاريخ أكثر مما دوى في سمع المؤرخين .

وبهذا الانهيار انفتح الباب واسعاً للدار الاخرى التي سميت دار الحرب والتي كانت على أهبة الاستعداد للانقضاض على دار الاسلام واستئصال هويتها الثقافية التي هي قلبها النابض ومركز الدائرة من حياتها. ودارت عجلة الحرب وما تزال تدور بين خصمين غير متكافئين: خصم قوي شديد الوعي معتز بهويته يشحذ أسلحته للقضاء على خصمه ، وخصم ضعيف خامل الوعي منفصل عن هويته يحسب في استرخائه أنه في سلام ولا يعلم أن حرباً ضروساً تطحنه. أخطر ما في هذه الحرب سلاحان مصوبان بعلم وفن وحذق الى المؤسستين الكبريين: الاسرة والتعليم، الحاضنتين المتكاملتين للهوية الثقافية .

افرزت تقدماً علمياً وتكنولوجياً ومنهجاً تجريبياً كانا وراء النهضة العلمية الحديثة لأوروبا .

أما المؤسسة الكبرى الأولى، الأسرة ، فقد غشتها هذه الحرب الضروس غير المعلنة ، حرب الهوية، وهي مثل جبل أكلته عوامل التعرية فصيرته قابلاً للانسحاق. وبضعفها القدي تلقت الأسرة ضربات المعول الجديد الذي شحذ بدهاء ومكر. استطاعت الروح الليبرالية بإغرائها أن تبدد ما تبقى من قوة هذا المعقل الأول من معاقل الاسلام .

واضح أن سحر الحرية المطلقة دمر النظام التقليدي للأسرة وعطل وظائفها الطبيعية التي تغذي الفطرة، أيقوامة الأب وحضانة الأم ونشأة الطفل بينهما. ترك الاب هيمنته الطبيعية (الهيمنة غير التسلط والتحكم) وتركت الأمعرشها ومملكتها وخرجت تلهث وراء وهم الحرية وتطلب العبودية وترك الطفل لرغباته وأهوائه، وانتقل مركز الدائرة منيد (الفطرة) الى يد (الغريزة) .

وبانهيار هذا المعقل الأول سوف تنهار المعاقل الاخرى التي تأخذ من البيت غذاءها وعدتها وأسلحتها. هكذاخرجت من (البيت) أجيال أسكرتها خمرة الليبرالية أو الحرية المطلقة وفصلتها عن فطرتها وأخرجتها من مزاج سيكولوجي يصل الدنيا بالآخرة الى مزاج سيكولوجي غريب عليها يفصل الدنيا عن الآخرة. فهذه الأجيال هي التي سينهض عليها صرحان شامخان في دولنا الحديثة، دول ما بعد الخلافة ، المدرسة والجامعة. من هذه الأجيال ستولد جهرة الأمة أو سوادها، الأمة المغيبة عن نفسها، الأمة في صورتها الجديدة التي صنعت على عين الغرب لا على عين الاسلام .

ورغم أن الأمة فقدت هويتها الثقافية فإنها لا تحمل الهوية الثقافية لهذا الغرب الذي صنعها على عينه. فهذه الأخيرة قامت من الأساس على تكريس النفس الحسية وعلى فصل الدنيا عن الآخرة، بينما قامت هويتنا الثقافية على الفطرة وعلى اتصال الدنيا بالآخرة، فما كان لهذه الهوية أن تزول، تماماً كما أن الفطرة لا تزول ولا تتبدل. هكذا وقعت الأمة المغيبة عن ذاتها وفطرتها في موقع الـــ (بين بين)، هذا الموقع الذي أغلق دونها أبواب البناء والابداع وصيرها تابعاً لا يتمتع بأصالة التفكير أو العمل .

ومع أن نداء الفطرة لم يغب عن سمعها فإنها لم تعد تلبي النداء إذ

صرفتها عنه الأهواء الدنيوية التي استبدت بها، ومع ان طيف الآخرة لم يختفِ من وجدانها فإنها لم تعد تستجيب له في حياتها الزمنية إذ صرفتها عنه محاسن الدنيا التي سقطت في أسرها .

من هذا السواد الأعظم الذي سقط صريعاً في حرب الهوية ستظهر الفئة التي يصدق عليها الحديث الشريف (... ومن عصاني فقد أبى). واضح أن هذه الفئة ثمرة تطور سيكولوجي حتمي تفاقم فيه الانفصال عن الفطرة واشتد فيه سُعار النفس الحسية حتى أصبحت الدنيا كل شيء ولم يعد للنعيم الأخروي بريق. هذه الفئة تشبه في (ابائها) هذامشركي مكة الذين مشوا إلى حرب الرسول صلى الله عليه وسلم ومعهم القيان والمعازف والخمر أي معهم جنتهم الدنيويةالتي (أبوا) من أجلها جنة الآخرة. ذاك صراع انتهى بانتصار الفطرة التي كان الاسلام منهجها. وما يزال التطورالسيكولوجي الذي أشرنا إليه يتفاقم وما تزال الفئة التي أشرنا اليها تتسع، إذ ما تزال حرب الهوية قائمة حامية الوطيس لا تضع أوزارها حتى يتم استئصال شأفة الأمة وتصبح هذه الفئة هي جهرة الأمة وسوادها. – فهي إذن طليعة هذا الركب السائر الى (وادي ظل الموت) معتقداً أنه سائر الى وادي الحياة، أي هي ظهير العدو وعميله) الموضوعي (الذي يعمل لأجله في عقر دار الاسلام .

العالمية الخفية لحرب الهوية:

الحديث الشريف الذي دار عليه البحث يلقي إذن ضوء على الصراع الوجودي الذي يخوضه الاسلام، وهو ضوء نافذ الى قلب هذا الصراع . نستطيع في هذا الضوء النافذ أن نرى ان هذا الصراع يتجاوز ساحته المباشرة التي هي العالم الاسلامي، لأنه إذ يستهدف القضاء على الفطرة يستهدف جوهر الانسان أينما كان، ولأنه إذ يستهدف القضاء على الشريعة يستهدف قانون البشر. إن حرب الهوية التي شنها الغرب (الحديث)على دار الاسلام هي في تعريفها الصحيح حرب على الجنس البشري وعلى الحضارة. ودعك من التسمية فإن ماهية المسمى تتجاوز الحصر الذي يتبادر الى النظ رة الاولى المأخوذة بظاهر الامر، فليست ديار المسلمين إلا

الساحة المباشرة لهذه الحرب التي يمتد لهيبها المسموم الى مشارق الارض ومغاربها. فالذين يتمسكون اليوم بفطرتهم ويصونونها من سموم هذه الحرب غير المقدسة هم جنود الجنس البشري ومصيره وحضارته إذ هم ينافحون عن حقوق العقل والروح .

الخاتمة

النتائج والتوصيات

ماهو الطريق اذن الى استرداد الهوية ؟

اذا كانت الفطرة هي قلب الهوية الثقافية لدار الاسلام وكان الاسلام هو منهاج الفطرة ومعقلها وحافظها من

الزيغ والغفلة ومقيمها من العثار ومفصّل الأصول المودعة فيها ومذكرها بحقائق الاشياء الكامنة فيها، اذا كان الأمركذلك فان لهذه الهوية ركنين لا قيام لها بدونهما: الايمان بالآخرة والايمان بالشريعة. وقد ربط القرآن بينهما ربطاً صريحاًبقوله) وهذا كتابٌ مبارك مصدّق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهمعلى صلاتهم يحافظون.) [١].

فلا يكفي إذن أن نعترف بصلاحية الشريعة لحل مشكلات المجتمع البشري، فهذا الاعتراف هو علمياً وموضوعياً

ما تستحقه الشريعة لكنه في حد ذاته لا يصنع الهوية. وقد اعترف الأوربيون بصلاحية الشريعة droit musulman اعترافاً صريحاً وهم الذين يحملو ن هوية تعارض هويتنا بعمق. أشار المؤتمرون فيما سمي " الأسبوع الدولي للشريعة " الذي انعقد في باريس من ٢ الى ٧ تموز (يوليو) ١٩٥١ تحت إشراف الاستاذ لويس ميو Louis Milliot الى قيمة هذا النظام القانوني والى غناه بالأفكار والتقنيات القانونية التي تسمح له بحل كل مشكلات الحياة المعاصرة. [٢]، بيد أن الإيمان بالشريعة أعمق من الاعتراف بصلاحيتها إذ هو مرتبط بالإيمان باليوم الآخر وبربوبية الله تعالى للبشر ارتباط الفرع بالأصل. ولم يكن إيمان الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم بالشريعة مستنداً الى فحصهم لصلاحيتها بل إيمانهم بها هو الذي قادهم

١الانعام ، الآية ٩٢ .

٢ Traveaux de la semaine internationale de droit musulman de Paris. 2-7 juillet 1951. Publ. L. Milliot. Paris. 1953.

انظر مجلة "المسلمون ". المركز الثقافي الاسلامي. جنيف. العدد ١. مارس ١٩٦١. ص٥٤ .

ثم قاد التابعين الى استجلاء وجوه صلاحيتها استجلاءً يقصر عنه الاعتراف الذي سقناه آنفاً والذي أعلن عنه المؤتمرون في (الاسبوع الدولي للشريعة). وانما آمن الرسول وسائر المؤمنين بما أنزل اليهم من ربهم لا بما درسوا صلاحيته وتأكدوا منها ثم بنوا على هذا التأكد موقفهم. وقد أشار القرآن الى ارتباط الايمان بالشريعة بربوبية الله تعالى بقوله : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون) ... [١]. وواضح أن هذا الايمان هو عمل الروح أو هو عمل الفطرة القائمة على ثنائية الروح والجسد .

واضح اذن ان حرب الهوية المستعرة بين ال غرب والعالم الاسلامي لا ترمي الى اقصاء النظام القانوني للشريعة،فالغرب نفسه مستعد للأخذ به اذا احتاج اليه بل هو يشيد به كما رأينا آنفاً، انها ترمي الى اقصاء الشريعة من حيث هي قائمة على الايمان بربوبية الله وحده وباليوم الآخر أي من حيث هي تمثل تجلي الروح في العالم الأرضي وهيمنتها عليه. هنا تصبح الشريعة معقلاً ينبغي هدمه والتخلص من خطره، هنا تصبح الشريعة أساساً لثقافة ونبراساً لحضارة ومصدراً لعلوم وآداب وفنون ومناهج حياة ومناهج عقلية، وقد جربوا من ذلك تجربة تاريخية ضخمة كانت على عظمتها مريرة عليهم.

يقظة الروح (ويقظتها في النشء، بالدرجة الأولى) هي بداية الطريق الى استرداد هويتنا. وهي يقظة مكان حدوثها البيت، المؤسسة الاولى والكبرى من مؤسسات المجتمع البشري، هذه المؤسسة القائمة على قوامة الأب وحضانة الأم. وزمان حدوثها السنوات الستة الأولى من حياة النشء . وسيحمل الآباء والامهات هذه المسؤولية المصيرية على عاتقهم يوم القيامة، وهي مسؤولية ثمينة بأن تجعلهم في الصف الأول ممن يجري عليهم الحساب. ويكفي في تقدير هذه المسؤولية أن نعلم أن قوامة الأب وحضانة الأم اللتين يقوم عليهما البيت هما فيما يترتب عليهما من النتائج العقلية والاخلاقية ركنا دار الاسلام وعنصرا هويتها الثقافية . وما انهدمت هذه الدار وانفتحت معاقلها للغزو الثقافي إلا بالتفريط في هذه المسؤولية .

وأسباب اليقظة الروحية المنشودة في النشء أشد وضوحاً من أن تحتاج الى تفصيل القول فيها. واذا حدثت فانها تفضي، كما أشارت اليه تحليلاتنا، الى توازن الروح والجسد، هذا التوازن الذي ينطوي على هيمنة الروح أي الذي

١البقرة، الآية ٢٨٥ .

يضمن أن تجري حياة الجسد وفق معايير الاخلاق. وضخامة النتائج المترتبة على هذه اليقظة تبرر الجهد الدؤوب الذي يبذل في سبيلها. أليست هذه النتائج الضخمة تفسر قول الله تعالى (... أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير.)[١] وهل يوجد في سواد الأمة عندئذ من يأبى بلغة الحديث الشريف الذي استخلصنا منه هذا الدرس المتعلق بهويتنا الثقافية ،هل يوجد عندئذ من يأبى الدار الآخرة بنعيمها الذي لا يقارن به نعيم الدنيا في أتمّ حالاته وأقصى درجاته؟ هل يوجد عندئذ من (لا يرجو) ،بلغة القرآن، لقاء الله و (يرضى) بالحياة الدنيا (مطمئناً) بها؟[٢] هل يوجد عندئذ إلا في عدد قليل ضئيل الشأن من سواد الأمة لا يؤبه به في حساب الحرب الثقافية التي ستأخذ نارها في الإنطفاء؟

١لقمان ، الآية ١٤ .

٢يونس، الآية ٧: " ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمئنوا بها..." وانظر قول الله تعالى (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ...) الانعام ، الآية ٩٢ .

قائمة المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الفتوحات الربانية، ابن حجر العسقلاني.

٣- صحيح أبي داوود.

٤- صحيح البخاري.

٥- صحيح مسلم.

٦- اعلام الموقعين. ابن قيمّ الجوزيه.

٧- الاعتصام للشاطبي.

٨- تاريخ الرسل والملوك. ابن جرير الطبري.

٩- الكامل في التاريخ . ابن الاثير.

١٠- الكتاب الشريف – التوراة والمزامير وصحف الانبياء والانجيل. The Holy Bible دار الكتاب الشريف.

١١- حضارة العرب. غوستاف لوبون

La Civilisation Des Arabes. Gustave – Le Bon.

ترجمة عادل زعيتر

١٢-Thomas Hobbes. L é viathan.

Gallimard . L ' introduction.

١٣ – الثورة الفرنسية. د. لويس عوض. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٤- انطونيو جالا. حوار مع صحيفة لاجوراندا المكسيكية.

http:// WWW.almuslimon.net/ article – view. PhP?id=18628

15 - lewis Bernard. les arabes dans l ' histoire. Editions: A la Baconni è re.

Neuchatel . Société francaise du livre . 1958.
16 – Traveaux de la semaine internationale de droit musulman de Paris.
27 juillet 1951. Publ.L.Milliot. Paris 1953.

انظر: مجلة " المسلمون " " المركز الثقافي الاسلامي . جنيف. العدد ١ مارس ١٩٦١. ص ٥٤.

ثَبْت المصادر والمراجع باللغة الإنجليزيّة اللاتينيّة:

thabt almasadir walmarajie biallughat al'injlyzyt allatynyt:

1- alquran alkarim.
2- alfutuhat alrabaaniati, abn hajar aleasqalanii. 3- sahih 'abi dawwd.
4- sahih albukhari.
5- sahih muslimin.
6- aelam almuqieina. abn qym aljuzih.
7- aliaetisam lilshaatibii.
8- tarikh alrusul walmuluka. abn jarir altibri.
9- alkamil fi altaarikh . abn alathir.
10- alkutaab alsharif - altawrat walmazamir wasuhuf alianbia' walianjili. The Holy Bible dar alkitaab alsharif.
11- hadarat alearibi. ghustaf lubun La Civilisation Des Arabes. Gustave - Le Bon. tarjamat eadil zieitar
12-L e viathan. Thomas Hobbes. Gallimard . L ' introduction.
13 - althawrat alfaransiatu. di. liwis eawad. alhayyat almisriat aleamat lilkitabi.
14- antuniu jala. hiwar mae sahifat lajuranda almiksikiati. http:// WWW.almuslimon.net/ article - view. PhP?id=18628
15 - lewis Bernard. les arabes dans l ' histoire. Editions: A la Baconni e re. Neuchatel . Societe francaise du livre . 1958.
16 - Traveaux de la semaine internationale de droit musulman de Paris. 2-7 juillet 1951. Publ.L.Milliot. Paris 1953. anzuri: majala " almuslimun " " almarkaz althaqafia alaslamia . jinif. aleadad 1 maris 1961. s 54.